قدوري نعيمة
جامعة أبي بكر بلقايد – تلمسان-

تمام حسان همزة وصل بين عبد القاهر الجرجاني و"فيرث" "**FIRTH**" حول نظرية السياق.

مقدمة:

لقد التفت القدماء إلى السياق اللغوي، وغير اللغوي، وذلك لأهميتهما في الوصول إلى المعنى المراد من التركيب، والسياق لا يتوقف على العناصر اللغوية فقط وإنما يعتمد أيضا على المقام المحيط بالجملة وحال المتكلم والمخاطب وطبيعة الموضوع، فربطوا بين المقام والمقال، فاللفظ المجرد من سياقه لا يكشف عن المعنى، وقد ظهر ذلك عند الحافظ وابن جني، أما عبد القاهر الجرجاني فاهتم بالسياق اللغوي اهتماما كبيرا في نظرية النظم التي برع فيها، وأوضح أن السياق هو ترتيب الألفاظ في الجملة وتأليفها بحيث تتألف مع ترتيب هذه الألفاظ ومعانيها في النفس والذهن لتكون هذه النظرية متكاملة، درست التفسير وعلوم القرآن والحديث والبلاغة والنحو واللغة والصرف.

أما في الدّرس اللغوي الحديث، فقد شغل السياق حيزا واسعا وارتبط بجهود كثير من علماء اللغة، حتى صارت نظرية متكاملة على يد العالم الانجليزي فيرث (J.R.FIRTH).

وفي هذا البحث نحاول ربط مصطلح "السياق"، "التعلق" بنظرية النّظم عند عبد القاهر الجرجاني، ومدى تقاطع هذه النظرية مع النظريات الغربية الحديثة، خاصة عند فيرث، ونقطة هذا التقاطع هو الدكتور تمام حسان، الذي تطرق إلى فكرة قرائن "التعليق" التي استلهمها من "الجرجاني" مقتفيا آثار "فيرث" الذي أقام نظريته على فكرة السياق في فهم الحدث اللغوي وعلاقاته التركيبية.

والمنهج المتبع في هذا البحث: التاريخي، والمنهج الوصفي التحليلي، وذلك بعرض نظرية السياق وفق ترتيب زمني.

1- تعريف السياق لغة واصطلاحا

السياق لغة: أصل السياق "سواق"، فقلبت الواو ياء لكسرة السين وهما مصدران من ساق، ومما ذكر ابن منظور "السياق في لسان العرب"«"ما تساوق" أي ما تتابع، و"المساوقة": المتابعة، كأن بعضها يوسق بعضا»[1].

أما الزمخشري فعرّفه في أساس البلاغة «...وهو يسوق الحديث أحسن سياق، وإليك سياق الحديث، وهذا الكلام ساقه إلى كذا، وجئتك بالحديث على سوقه، على سرده»[2].

والسياق اصطلاحا: (Contexte): يعرفه روبتر «بأنه البيئة اللغوية (Lingnuisticcontext) التي تحيط بصوت أو فونيم أو مورفيم أو كلمة أو عبارة أو جملة»[3].

ويرى "برونسلامالينو فسكي"، «أن المعنى لا ينكشف إلا من خلال تسييق الوحدة اللغوية، أي وضعها في سياقات مختلفة»[4].

2- نظرية السياق في الدراسات الغربية:

لقد أكدّ فيرث على: «التوازي بين السياقات الداخلية والشكلية...وبين السياقات الخارجية للموقف»[5]، وهذا ما جعل فيرث (ت 1960م) يتبنى سيّاق الحال الذي جاء به مالينو فسكي، لكنه لم يكتف به بل تعداه إلى الدراسة اللغوية الصوتية، الصرفية، النحوية، المعجمية، لتكتمل الدراسة الدلالية، وهو أول من استعمل مصطلح سياق الحال، ويعني هذا المصطلح «الموقف الفعلي الذي حدث فيه الكلام، ولكنه يقود إلى نظرية أوسع للسياق تضم الخلفية الثقافية التي وضع الحديث الكلامي بإزائها»[6]، كما قدم مفهوما جديدا للغة وهو سياق المجتمع الذي أنتج هذه اللغة بقوله: «إن السياق الذي قصده مالينوفسكي هو البنية الطبيعية، والواقع الثقافي للمجتمع، ثم تطور باستعمال فيرث له في دراسته اللغوية»[7].

وفي حديث مالينو فسكي عن سياق الحال، أوجد ما يسمى بـ "التجامل" وذهب إلى«أن كثير ما نتكلم به لا يقصد به اساسا التفاهم، أو تقديم المعلومات، أو إصدار الأوامر، أو التعبير عن الآمال والرغبات وإثارة العواطف وإنما يستعمل لخلق شعور بالتفاهم الاجتماعي والمعاملة وكثير من العبارات المعدة أصلا، مثل How do you do المحددة اجتماعيا قد تخدم هذا الغرض، أي التجامل»[8].

أما العالم الفرنسي فندريس، فقد اهتم بسياق المقال، لا سياق الحال، حيث يقول: «إننا حينما نقول بأن لإحدى الكلمات أكثر من معنى واحد في وقت واحد، نكون ضحايا الانخداع إلى حد ما، إذ لا يطغوا في الشعور من المعاني المختلفة التي تدل عليها إحدى الكلمات، إلا المعنى الذي يعنيه سياق النّص، أما المعاني الأخرى فجميعها تنمحي وتتبدد ولا توجد إطلاقا»[9]، فالكلمة في السياق لها معنى واحد، ولا تتعدى معانيها إلا خارجه.

ويرى فندريس أن الذي يعين على تحليل النصوص هو السياق في قوله: " الذي يعين قيمة الكلمة هو السياق، إذ أن كلمة توجد في كل مرة تستعمل فيها في جو يحدد معناها تحديدا مؤقتا، والسياق هو الذي يفرض قيمة واحدة بعينها على الكلمة على الرغم من المعاني المتنوعة التي في وسعها أن تدّل عليها، وهو الذي يخص الكلمة من الدلالات الماضية التي تدعها الذاكرة تتراكم عليها، وهو الذي يخلق لها قيمة حضورية[10]، معتمدين على سياق النصّ، وهذه هي الخطة التي يتبعها التلاميذ عندما يحاولون ترجمة نص أجنبي"[11].

فالكلمة تكتسب دلالتها من خلال موقعها في السياق، فمكونات السياق، وارتباط عناصر بعضها ببعض تزيد في دقة معنى الكلمة، على الرغم من جهد "مالينوفسكي" و"فندريس" في نظرية السياق إلا أنّ العالم" Firth"، فيرث حاول أن يؤسس نظرية لغوية متكاملة في موضوع السياق، فتقدم في النصف الأول من القرن الماضي برؤية جديدة في مفهوم الدلالة في علم اللغة الحديث، تبنته مدرسته التي عرف بها "المدرسة الألسنية الاجتماعية"، إذ نظر الى المعنى أنّه نتيجة علاقات متشابكة متداخلة، فهو ليس فقط وليد لحظة معينة يصاحبها من صوت وصورة، ولكنه أيضا حصيلة المواقف الحية التي يمارسها الاشخاص في المجتمع فالجمل تكتسب دلالتها في النهاية من خلال ملابسات الاحداث، أي من خلال سياق الحال"[12]، ويرى أنّ المعنى لا ينكشف إلا من خلال تسييق الوحدة اللغوية، أي وضعها في سياقات مختلفة"[13].

كما أكد فيرث على "التوازي بين السياقات الداخلية والشكلية ... وبين السياقات الخارجية للموقف"[14]، فهذا معناه أن دراسة المعنى يعتمد على دراسة المواقف الاجتماعية «فدراسة المعنى عند فيرث تعني تحليله للسياقات والمواقف التي يرد فيها، حتى ما كان منها غير لغوي»[15].

وتقوم نظرية فيرث على ثلاثة أركان رئيسية في دراسة المعنى وهي:

أولا: وجوب اعتماد لغوي على ما يسمى بالمقام أو سياق الحال، وسياق الحال كما حدّده فيرث يقوم على عناصر وهي:

1. المظاهر وثيقة الصلة بالمشاركين: أي المتكلمين والسامعين وتتضمن ثلاثة أمور:

أ- كلام المشاركين: أي الحدث الكلامي الصادر عنهم.

ب- الحدث غير كلامي: ويقصد به أفعالهم وسلوكهم أثناء الكلام.

ج- شخصية المتكلم والسامع وتكوينهما الثقافي، وكذا ما يشهد الكلام من غيرهم، إن وجدوا، وبيان مدى علاقاتهم بالسلوك اللغوي، وهل يقتصر دورهم على مجرد الشهود، والنصوص التي تصدر عنهم.

د- الأشياء وثيقة الصلة بالموقف: وهي العوامل والظواهر الاجتماعية ذات العلاقة البالغة والسلوك اللغوي لمن يشارك في الموقف الكلامي نحو: مكان الكلام وزمانه والوضع السياسي، وكل ما يحدث أثناء الكلام مما يتصل بالموقف الكلامي.

ه - أثر الحدث الكلامي في المشتركين، كالألم، الإقناع، أو الإغراء أو الضحك...وبذلك قدّم "فيرث" أسسا دقيقة لسياق الحال.

ثانيا: وجوب تحديد نية الكلام المدروس، وذلك لكي نضمن عدم الخلط بين لغة وأخرى، فقد تكون كلمة في بيئة معينة لها صلة وثيقة بالبيئة التي تحتضنها، وهو ما يمكن أن يسمى بالسياق الثقافي"[16].

ثالثا: "وجوب النظر إلى الكلام اللغوي على مراحل، لأنه مكون من أحداث لغوية مركبة"[17].

ومن هذا نستنتج أن نظرية "فيرث" السياقية تنطلق في دراسته السياق من خلال مجموعة الوظائف اللغوية (الصوتية، المورفولوجية، النحوية، المعجمية، الدلالية)، فيدرس المعنى على المستويات جميعها، ويجب أن ترتبط بسياق الحال، ولقد أعطى فيرث اهتمام كبيرا للسياق، وعدّه الأساس لعلم الدلالة.

ولقد تعددت المناهج اللغوية الغربية المختلفة لدراسة المعنى، كالنظرية الإشارية التي قامت على يد كل من "أوجدن" و"ريتشاردز"، اللذان ظهرت أفكارهما في كتابهما "The Meaning of Meaning"، والنظرية التصورية أو العقلية لـ "جون لوك"، والنظرية السلوكية لـ "بلوم فيلد" المسؤول عن تقديمها إلى علم اللغة»[18]، الذي لفت إلى أهمية الموقف والاستجابة التي تستدعي لدى السامع في تحديد معنى الصيغة اللغوية، وتناول المتكلم والسامع بالتحليل، فجعل الكلام بديلا من استجابة عضوية لمثير معين[19].

أما "ستيفن" و"أولمن"، ركّزا على الفرق بين اللغة والكلام، فاللغة ثابتة مستقرة والكلام عابر سبيل الزوال، واللغة تفرض علينا من الخارج في حين الكلام نشاط متعمد مقصود، كما أن اللغة اجتماعية والكلام فردي[20].

ويقول أولمن: «إن نظرية السياق –إذا طبقت بحكمة- تمثل حجر الأساس على المعنى، وقد قادت بالفعل إلى الحصول على مجموعة من النتائج الباهرة في هذا الشأن، فقد قدمت لنا وسائل فنية حديثة لتحديد معاني الكلمات فكل كلماتنا تقريبا تحتاج على الأقل إلى بعض الإيضاح المستمد من السياق فتحدد الصور الأسلوبية للكلمة، كما تعدّ ضرورية في تفسير المشترك اللفظي»[21].

كما أنه قد وسع مفهوم السياق فقال: «إن السياق على هذا التفسير ينبغي أن يشتمل –لا الكلمات والجمل الحقيقية السابقة واللاحقة فحسب بل والقطعة كلها والكتاب كله»[22]، وهو ما يطلق عليه "سياق النص"، ومن هذا نفهم أن سياق النص سيلزم فهم النص جميعه، وحسب مفردات متناثرة....

أما النظرية التحويلية التي أسسها "نعوم تشومسكي"" فدرسوا اللغة من خلا ل اللغة نفسها، فعقلوا المعنى، وأبعدوا الموقف أو المقام التي تقال فيه تلك الجمل، وذلك لأن المقام في نظريته يضيف صعوبة إضافية لمنهج التحليل اللغوي المنظم، فقامت هذه النظرية على فكرة "المتكلم السامع المثالي، وثنائية، "الطاقة والأداء"[23].

وقد دافع "بالمر" على النظرية السياقية قائلا: «من السهل أن نسخر من النظريات السياقية –مثلما فعل بعض العلماء – وأن نرفضها باعتبارها غير عملية، لكن من الصعب أن ترى كيف يمكننا أن نرفضها دون إنكار الحقيقة الواضحة التي تقول بأن معنى الكلمات والجمل يرتبط بعالم التطبيق»[24].

ولقد قسم "بالمر" السياق إلى "السياق اللغوي، وغير اللغوي".

3- السياق عند اللغويين العرب المحدثين (تمام حسان):

لقد تولّد السياق بتأثير واضح من نظرية "فيرث" السياقية، لأنهم تلقوا هذا العلم على يديه بشكل مباشر أو غير مباشر، فشرعوا في دراسة النظريات الدلالية، وأهم هؤلاء الدكتور –تمام حسان- الذي تحدث عن السياق: «من خلال ربطه بين الشكل الوظيفة –في حديثه عن المجاورة في السياق، أي دراسة الكلمة عن طريق المجاورة في السياق بوصفها نواة الدلالة أو لأنها ذات معنى معجمي، وفرّق بين المعنى المعجمي والمعنى الوظيفي»[25].

ووضع مسائل الربط في السياق على النحو التالي:

- وسائل التماسك السياقي.
- وسائل التوافق السياقي.
- وسائل التأثير السياقي[26].

وقد جعل المعنى الدلالي يرتكز على المعنى المقالي، والمعنى المقامي وفق الشكل الذي يوضح العلاقة بينهما:

- المعنى الدلالي [27]
- المعنى المقالي: وهو مكون من المعنى الوظيفي
- المعنى المقامي: وهو مكون من ظروف أداء المقال
- المعنى المعجمي وهو يشمل القرائن المقالية وهي التي تشتمل على القرائن الحالية.

كما وجدت (منها ما هو معنوي وما هو لفظي) (وكل ذلك يسمى المقام)

وأما القرائن المعنوية في المقال فهي خمسة أنواع:

- قرينة، الإسناد: علاقة المبتدأ بالخبر، الفعل والفاعل.
- قرينة التخصيص: التعدية في المفعول معه.
- قرينة المخالفة: المنصوبات وتغير المعنى بتغيرها إلى المرفوعات.
- قرينة النسبة: معاني حروف الجر التي بها تنتسب معاني الأفعال إلى الأسماء.
- القرينة التبعية: الصفة، التوكيد، البدل، العطف.

وأما القرائن اللفظية: فهي العلامة الإعرابية، الرتبة، مبنى الصيغة، المطابقة، الربط، التضام، الأداة والنغمة[28]، وقد أدخل إلى "معنى المقام"، المعنى الاجتماعي الذي هو شرط لاكتمال المعنى الدلالي"، ومثل ذلك «قد تعلم أن "يا" من حروف النداء، وأن كلمة "سلام" اسم من أسماء الله تعالى، وهي كذلك ضد الحرب، فإذا أخذنا المعنى الوظيفي لأداة النداء، والمعنى المعجمي كلمة سلام حين تنادي "يا سلام"، فإن ظاهر النصّ أننا ننادي الله سبحانه، ولكن العبارة قد تختلف مع اختلاف كل مقام، فتقال هذه لعبارة في مقام التأثر، وفي مقام التشكيك، وفي مقام السّخط، وفي مقام الطّرب وفي مقام الإعجاب»[29].

ولقد تحدث عن نوع المقامات التي تكمل الطابع الاجتماعي فـ "تمام حسان" جعل المقام مركبا، والموقف بسيطا، كالمثال الذي قال فيه الرجل لزوجته "أهلا بالجميلة"، فالاحتمالات التي تحتملها هذه التحية تجعل المقامات تختلف من مقام غزل،، إلى مقام توبيخ، إلى مقام تعبير، ولا يمكن لواحد من هذه المعاني «أن يؤخذ أخذا مباشرا من المعنى المعجمي لكلمة "أهلا"، والمعنى المعجمي لكلمة : الجميلة، ولا من المعنى الوظيفي لأي منهما، ولا للباء (الحرف الجر) التي ربطت بينهما في السياق»[30].

ويتحدث تمام حسان عن الفرق الواضح بين المقام والموقف، فالمقام حسب رأيه عام، والموقف خاص، فهو يشتمل –أي المقام - «مقام الدّعاء والصلاة وتقيد المواعيد والعناوين وأرقام التليفون في المفكرة، وكالقراءة في الخلوة ونحوها مما يعوزه الطابع الاجتماعي الواضح، حتى إن هذه المواقف لتصلح أن تسمى مواقف فردية لا ما مقامات اجتماعية»[31].

أما المقامات الاجتماعية فـ «يتبادل الناس فيها الكلام، ولكنهم لا يقصدون به أكثر من شغل الوقت وحل موقف اجتماعي، والكلام الذي يقال في هذا المقام ليس مقصودا لذاته، لذلك يكون موضوعه الطقس أو السياسة أو أي موضوع عام آخر، والحقائق التي يشتمل عليها هذا الموضوع معروفة عن طرفي المحادثة، فلا يفيد أحدهما من سماعها أي قدر من المعلومات الجديدة لكن كلا الطرفين يلغو رفعا للحرج الذي يتوقعه نتيجة الصمت»[32]، فمواضيع هذه المقامات عامة وليست شخصية.

والظواهر السياقية مختلفة حسب ما أورده تمام حسان، منها ما يتعلق بالنظام الصوتي للغة العربية، فقال: «التطبيق العملي لنظام اللغة قد يشتمل على دال ساكنة متبوعة بتاء متحركة، وهنا نجد أن تجاور الحرفين على هذا النحو يتسبب في صعوبة عضوية تتحدى محاولة المحافظة على ما قرره هذا النظام، كما يتسبب التقاء المتقاربين دائما في احتمال اللبس، ولو حاولنا في نطقهما عبثا أن نرمي مطالب النظام، لأن جهر الدّال الساكنة المتبوعة بتاء متحركة أمر ثقيل التحقيق في النطق، وهنا تظهر مشكلة من مشاكل التطبيق يحلها السياق بظاهرة الإدغام، فتكون الدّال والتّاء في النطق كالتاء المشددة تماما مثل "قعدتُ" والإدغام الذي ذكرنا واحدة من الظواهر السياقية التي تحل مشاكل النظام اللغوي»[33].

ثم يقول «إن الأسس التي تتحكم في تحقيق الظواهر السياقية إنما هو كراهية التقاء صوتين أو مبنيين يتنافى التقاؤها مع أمن اللبس، أو مع الذوق الصياغي للفصحى فتحدث الظاهرة لعلاج موقف التقى فيه هذان الأمران فعلا، وذلك نتيجة لما قضى به أحد أنظمة اللغة للمباني خارج السياق»[34].

كما تحدث تمام حسان عن ظاهرة التأليف بقوله: «إن الكلمة العربية عند الأقدمين إذا أريد لها أن تكون فصيحة مقبولة فإنها تتطلب في مخارج حروفها أن تكون متناسقة، ولا تتسامح اللغة فتتخلى عن هذا المطلب إلا في أضيق الحدود، وفي حالات الزيادة والإلصاق ونحوهما»[35].

ومعنى هذا أن الكلمة تكون متآلفة متناسقة في مخارج حروفها تألف لها الأذن عند سماعها، وعلى أساس هذا بنى القدماء نقدهم لكلمة "مستشزرات"[36]، الواردة في معلقة امرئ القيس.

كما يعدّ التنغيم جزءا هاما من النظام النحوي لغة، وهو عنصر هام من عناصر السياق على المستوى الصوتي، لأنه يفرق بين معاني العبارات والكلمات ويتضح ذلك عندما «يعمد المتكلم إلى التضاهد بأمر هو عكس ما يتطلب الموقف من تنغيم، كأن يقص المتكلم أمر حادثة مات فيها عدد من أصحابه وأقربائه، ولكنه يريد أن يكون هائدا في سرد القصة لئلا يثير أحزان السامعين بصورة أشد، فيصطنع هذا الكلام الذي يحتمل

نغمة الحسرة والجزع نعمة أخرى فيها هدوء وتماسك، فهنا تعطى الجملة وظيفة جديدة ونغمة غير نغمتها التي في النظام، ويكون التنغيم ظاهرة سياقية»[37].

كما يلعب النبر دور كبير في الكشف عن المعاني، والنبر هو «ازدياد وضوح جزء من أجزاء الكلمة في السمع عن بقية ما حوله من أجزائها»[38]، فاللغة العربية تمنح النبر معنى وظيفيا في معنى الجملة، ومثال ذلك قول القائل "أُذكر الله" و"أذكري الله"، والمعروف أن هذا الموقع الذي تنطق فيه الياء مثل الكسر في "أذكر الله".

وهذا السياق عند تمام حسان، وقد أقام منهجه على فكرة التعليق أو العلاقات السياقية، وهي الفكرة المركزية في النحو العربي، وقد استلمها من الجرجاني مقتفيا أثر أستاذه فيرث"[39]، الذي أقام نظريته -كما أسلفنا ذكره- على فكرة اسلياق، على الرغم من أن هذه الفكرة قد عالجها علماء اللغة قديما من خلال إدراكهم أثر السياق في فهم الحدث اللغوي.

وعلى هذا كان تمام حسان همزة وصل بين الجرجاني وفريث، من خلال ربطه بين "نظرية السياق عند فيرث" والتعليق النحوي عند عبد القاهر الجرجاني، فيما يسمى سياق "الحال"، و"السياق اللغوي" أو "المقال" وانتهى هذا التأثير عنده بالمنهج الوصفي الوظيفي الذي تبناه، وبنى عليه فكرة القرائن بعد قراءته عبد القاهر الجرجاني وفكرة التعليق النحوي عنده"[40].

«ولأن التعليق يحدد بواسطة القرائن معاني أبواب السياق، ويفسر العلاقات بينها على صورة أوفى وأفضل وأكثر نفعا في التحليل اللغوي لهذه المعاني الوظيفية النحوية»[41]، وقد قرن تمام حسان رأيه في القضاء على حرافة العامل النحوي –برأي عبد القاهر الجرجاني في قوله «وفي رأي كما في رأي عبد القاهر الجرجاني على أقوى احتمال أن التعليق هو الفكرة المركزية في النحو العربي، وأن فهم التعليق على وجهه كافي وحده للقضاء على خرافة العمل النحوي»[42].

وللاستدلال على أن تمام حسان همزة وصل بين الجرجاني وفيرث علينا أن نعرف مفهوم السياق عند عبد القاهر الجرجاني.

4- معنى "السياق" أو "التعليق" عند عبد القاهر الجرجاني:

لقد تناول العلماء العرب من بلاغيين ولغويين ظاهرة السياق وأثره على المعنى واهتموا بها لصلتها الوثيقة بالقرآن الكريم، فاكتفوا بالتطبيق اللغوي"، وذكروا المقام والحال وأرادوا به السياق المحيط بالحدث الكلامي، وتلتقي نظرية السياق عند الغربيين بمفهوم السياق عند العرب القدامى، كابن جني، والجرجاني وغيرهما.

وقد التقت نظرية النظم عند الجرجاني (ت 471هـ) نظرية السياق عند فيرث في تعريف المعنى، ويعرف الجرجاني (ت471هـ) مع نظرية النظم السياق «بأنه تعلق الكلم بعضها بعض، وجعل بسبب ن بعض»[43]، كما يقول الجرجاني في تعريفه للنظم: «أعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل شيء منها»[44].

كما أوضح أن السياق هو «ترتيب الألفاظ في العملية وتأليفها بحيث تتألف مع ترتيب هذه الألفاظ ومعناها في النفس والذهن والعقل»[45] فلقد أكد الجرجاني من خلال هذا بين ثنائية اللفظ والمعنى، وثنائية المقام والمقال، فالمقام يمثل السياق اللغوي، لأن فضاحة الكلمة مربوط سياقها اللغوي، واللغوي والترتيب الذي قيلت فيه، حيث يقول: « وجملة الأمر أنا لا نوجب الفصاحة للفظة مقطوعة مرفوعة من الكلام الذي هي فيه، لكنا نوجبها لها موصولة بغيرها، وعناها بمعنى ما يليها، فإذا قلنا في لفظة "اشتغل" من قوله تعالى ﴿**وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا**﴾ إنها في أعلى مرتبة من الفصاحة و"ولم توجب لها تلك الفصاحة وحدها، ولكنه موصلا بها الرأس معرفا بالألف واللام ومقرونا إليها منكرا منصوبا" »[46].

ويقول في موضع آخر "فقد اتضح إذن إتّضاحا لا بدع للشك مجالا أن الألفاظ لا تفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ولا من حيث هي كلمٌ مفردة، وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ"[47].

كما تطرق عبد القاهر الجرجاني إلى "المقام"، إذ ربط الكلام بمقام استعماله ومراعاة مقتضى حاله وهو لب دراسة المعنى اللغوي عنده وهو بهذا يدعو إلى عدم تطبيق قاعدة واحدة على كل الحالات بل لابد من النظر في حال المتكلمين والمستمعين ومعرفة أسباب العناية وبواعثها.

كما أشار في موضع آخر إلى أن الفاعل قد «يكون له مفعول مقصود قصده معلوم إلا أنه يحذف من اللفظ لدليل الحال عليه»[48]، و«نوع منع أن تذكر الفعل وفي نفسك له مفعول مخصوص قد علم مكانه لجري ذكر أو دليل حال، إلا أنك تنسيه نفسك وتخفيه...»[49].

فعبد القاهر الجرجاني هنا قد اهتم بشقي السياق "اللغوي وغير اللغوي" في دراسته للتراكيب وما يلحقها من حذف، فقال في ذلك «ومما يجب ضبطه هنا أيضا أن الكلام إذا امتنع حمله على ظاهره حتى يدعو إلى تقدير حذف أو إسقاط مذكور كان على وجهين: أحدهما: أن يكون امتناع تركه على ظاهره لأمر يرجع إلى غرض المتكلم»[50]، والوجه الثاني «أن يكون الكلام نفسه امتناع ترك الكلام على ظاهره ولزوم الحكم بحذف أو زيادة من أجل الكلام نفسه، لا من حيث غرض المتكلم به، وذلك مثل أن يكون المحذوف أحد جزء في الجملة»[51].

وهكذا يربط الجرجاني جميع القرائن النحوية من تضام أو رتبة أو "مطابقة" بمراعاة السياق اللغوي وسياق المقام، وما يتصل بالموقف من ظروف وبكل ما له علاقة بحال المتكلمين وموضوع الكلام والمخاطبين وما يتصل بمشاعرهم[52].

كما لا يستحسن عبد القاهر الجرجاني علّة العناية والاهتمام التي جعلها سيبويه سر التقديم والتأخير في التراكيب فقال «واعلم أ لم نجدهم اعتمدوا فيه شيئا ويجري مجرى الأصل غير العناية والاهتمام »، قال صاحب الكتاب وهو يذكر الفاعل والمفعول: «كأنهم يقدمون الذي بيانه أهم لهم وهم بشأنه أعنى وإن كانا جميعا يهمّانهم ويعنيانهم، ولم يذكر في ذلك مثال، ...هذا جيد بالغ، إلا أن الشأن في أنه ينبغي أن يعرف في كل شيء قدّم في موضع من الكلام مثل هذا المعنى ويفسر وجه العناية فيه هذا التفسير، وقد وقع في ظنون الناس أنه يكفي أن يقال إنه قدم للعناية، وبم كان أهم ولتخليهم ذلك قد صغر أمر التقديم والتأمير في نفوسهم، وهوّنوا الخطاب فيه حتى إنّك لترى أكثرهم يرى تتبعه والنظر فيه ضربا من التكلف»[53].

وبهذا فهو يؤكد علاقة الكلام بنية صاحبه أو بمقام استعماله إلا أن سيبويه أكد في أغلب كلامه أن لتقديم والتأخير علاقة بما في نفس المتكلم من يقين أوشك، فقال: «فإذا ابتدأ كلامه على ما في نيته من الشك أعمل الفعل قدّم أو أخّر»[54]، أي إذا كان في نية المتكلم الشك من ابتداء الكلام أعمل الفعل سواء قدّمه أو أخره.

وإذا اقترن مصطلح "مقتضى الحال"، بتعبير القدامى من مصطلح "سياق الحال" في الدرس اللغوي الحديث، ويشتركان في خاصية مهمة، وهي الاهتمام بالجانب الاجتماعي للغة، فإن مصطلح "مقتضى الحال"، الذي عرّفه التهانوي بقوله: «والحال في اصطلاح أهل المعاني هي الأمر الدّاعي إلى المتكلم على وجه مخصوص، أي الدّاعي إلى أن يعتبر مع الكلام الذي يؤدي به أصل المعنى خصوصية ما هي المسماة بمقتضى الحال، مثلا كون المخاطب منكرا للحكم حال يقتضي تأكيد الحكم، والتأكيد بمقتضاها وعلى هذا النحو قولهم (علم المعاني)، علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق اللفظ مقتضى الحال –أي يطابق صفة اللفظ مقتضى وهذا هو المطابق بعبارات لقوم حيث يجعلون الحذف والذكر إلى غير ذلك معلّلة بالأحوال »[55].

فهذا القول يؤكد على أن أهل علم المعاني اهتموا بأحوال المتكلم والمستمع والتعريف يقتضي أن يكون المتكلم على علم بأحوال السامع قبل أن يتكلم حتى يتطابق مع حال السامع، فإن المصطلح أضيق دلالة من مصطلح "سياق الحال"[56]، إذ من الواجب أن يسبق المقام مقتضى الحال، لأن الكلام يصاغ بمقتضاه، وهذا يختلف عن مصطلح "سياق الموقف"، حيث يستعان بعناصره في فهم الكلام بعد إنتاجه، وهذا المقال جزء من هذا السياق وليس منفصلا عنه.

ويرى الدكتور كمال بشر «أن البلاغيين قد وفقوا في إدراك شيء مهم في الدرس اللغوي وهو المقام...وكانت غايتهم في المقام موجهة نحو الصحة والخطأ أو نحو الجودة وعدمها، ولهذا كانت نظرتهم إلى المقام أو مجربات الحال أو ما يسميه هو –المسرح اللغوي نظرة معيارية لا وصفية»[57].

وبعذ هذه المقارنة يمكننا أن نستنتج بعض النتائج المتعلقة بنظرية السياق التي استلمها تمام حسان من عبد القاهر الجرجاني وأستاذة "فيرث" والنقاط المشتركة بين هؤلاء العلماء:

- لقد التقت نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني مع نظرية السياق عند فيرث في تعريف المعنى، إذ يعرفه الجرجاني في نظرية النظم أنه تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض".
- إذا لاحظنا قول الجرجاني «واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك منهاجه التي نهجت فلا تزيح عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخلّ شيء منها»، وقارناه بقول فيرث في تعريفه للمعنى نجدهما يتوافقان، إذ قال فيرث: «فالمعنى لا ينكشف إلا من خلال تسيق الوحدة اللغوية، أي: وضعها في سياق ات مختلفة»[58].
- نظم الكلام عند الجرجاني قائم على اقتفاء أثر المعاني، وكان لذلك أثر على المدرسة الاجتماعية عند فيرث، فلقد ركزّت على دور السياق في تحديد المعنى، فالكلمة يتحدد معناها من خلال السياق الذي ترد فيه، حيث أن للكلمة عدة استعمالات سياقية، وكل سياق يظهر أو يحدد أحد هذه المعاني أو وجها منها، وتزعم فيرث فكرة السياق وأصّل دراسته للمعنى في إطار منهجي.
- تطرق تمام حسان إلى السياق من خلال ربطه بين الشكل والوظيفة في حديثه عن المجاورة في السياق، أي دراسة الكلمة عن طريق المجاورة بوصفها نواة الدلالة، وهذا ما ذهب إليه عبد القاهر الجرجاني في ظاهرة التعلق.
- تكلم تمام حسان عن ظاهرة التأليف، الذي له علاقة بفصاحة الكلمة وهو نفس ما ذهب إليه عبد القاهر الجرجاني.
- أقام تمام حسان منهجه على فكرة التعليق أو العلاقات السياقية، وهي الفكرة المركزية في النحو العربي، التي استنبطها من الجرجاني، مقتفيا أثر أستاذه فيرث الذي أقام نظريته على فكرة السياق.
- يتقارب مفهوما النظم والسياق، فالنظم هو تأليف الكلام في سياق محدد يقتضيه علم النحو (متوخى فيه معاني النحو)، فالكلام لا تأخذ مواقعها في السياق عضوا، وإنما من خلال إقامة علاقات معنوية بينها كما يتقدم عبد القاهر الجرجاني في شرح نظرية النظم مصطلحات تشير إلى السياق مثل (الضم، الترتيب، التركيب، التأليف، النسق، والسياق..).
- لقد وافق فيرث عبد القاهر الجرجاني وسار على نهجه عندما رأى أن السياق علاقة بين العناصر اللغوية، والسياق الاجتماعي بحيث تتحدد معاني تلك العناصر وفقا لاستعمالها في المواقف الاجتماعية المختلفة.

وعليه فإن نظرية السياق قديمة في الدرس اللغوي، إلا أن الفرق يكمن في أن القدامى اهتموا بالتطبيق على آيات القرآن الكريم، لذلك لم يجعلوها نظرية مستقلة تحظى بالاهتمام أما علماء اللغة المحدثين نظروا لها وجعلوها، نظرية قائمة بذاتها، وبهذا ندرك أن فكرة السياق عندما تناوله المحدثون الغرب والعرب–لم تكن جديدة تماما، وإنما كانتا استمرارا لجهود الدرس اللغوي عند العرب، وأمهم عبد القاهر الجرجاني، ولكن الغرب مثقل "فيرث"، قد صاغوا هذه الفكرة في شكل نظرية قابلة للتطبيق على جميع أنواع المعنى، من صوتية وصرفية ونحوية واجتماعية، أما عند العرب فكانوا يطبقون أفكارهم على القرآن الكريم دون صياغتها في نظرية قابلة للتطبيق، لكن عند اعترافهم بفكرة "المقام" كانوا متقدمين ألف سنة على زمانهم، لأن هذه الفكرة بوصفها من أسس تحليل المعنى تعدّ الآن في الغرب من البحوث التي جاءت نتيجة للتفكير المعاصر في دراسة اللغة.

هوامش الدراسة :

1- ينظر: لسان العرب، أبي الفضل جمال الدين، محمد بن مكرم، ابن منظور الإفريقي المصري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط2، ج2، سنة: 1412هـ/1992م، ص: 282.

2- علم الدلالة، أحمد مختار عمر، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، ط1، سنة: 1982م، ص: 68.

3- ينظر: موجز تاريخ علم اللغة في الغرب، ه.روبتر، ترجمة: أحمد عوض، عالم المعرفة، الكويت، العدد 227، سنة: 1997م، ص: 349.

4- معجم المصطلحات اللغوية والأدبية، محمد شكري عباد، الرياض، دار المريخ للنشر، د.ط، سنة: 1984م، ص: 56.

5- ينظر: موجز تاريخ علم اللغة في الغرب، ه.روبتر، مرجع سابق، ص: 349.

6- ينظر: معجم المصطلحات اللغوية والأدبية، محمد شكري عباد، مرجع سابق، ص: 56.

7- ينظر: علم اللغة، مقدمة للقارئ العربي، محمود الشعران، تصوير جامعة حلب، د.ط، سنة: 1994م، ص: 310.
8- ينظر: علم الدلالة، الفصلان التاسع والعاشر من كتاب مقدمة في علم اللغة النظري، جون لانيز، ترجمة: مجيد عبد الحليم الماشطة، حليم حسن فالح، وكاظم حسن باقد، جامعة البصرة، كلية الآداب، د.ط، سنة: 1980م، ص: 32.
9- وينظر: اللغة: فندريس، ترجمة: عبد الحميد الذواخلي ومحمد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د.ط، سنة: 1950م، ص: 228.
10- ينظر: الصمدر نفسه، ص: 252.
11- ينظر: المصدر نفسه، ص: 252.
12- ينظر: الاتجاه اللوظيفي وزدوره في تحليل اللغة، مجلة علم الفكر، يحيى أحمد، بيروت، الطبعة الثالثة، سنة: 1980، ص: 82.
13- ينظر: علم الدلالة، أحمد مختار عمر، مرجع سابق، ص: 68.
14- ينظر: موجز تاريخ علم اللغة في الغرب، مرجع سابق، ص: 349.
15- نقلا عن علم الدلالة، أحمد مختار عمر، مرجع سابق، ص: 69.
16- Combridge rolume 2 ، J.Lyons، Semonlies First Published london، p 609.
17- علم الدلالة بالمر: إطار جديد، ترجمة: صبري السيّد، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط1، سنة: 1999م، ص: 77.
18- ينظر: علم الدلالة، أحمد مختار عمر، مرجع سابق، ص: 54-67.
19- ينظر: مناهج البحث في اللغة، تمام حسان، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط2، سنة: 1394هـ/1974م، ص: 243.
20- ينظر: دور الكلمة في اللغة، تسيفن أولمان، ترجمة: د.كمال بشر، مكتبة الشاب، ط10، سنة: 1986م، ص: 32.
21- المصدر نفسه، ص: 66-67.
22- ينظر: علم الدلالة العربي، فايز الداية، دار الفكر دمشق، ط1، سنة: 1405هـ/1985م، ص: 218.
23- ينظر: علم اللغة الاجتماعي، كمال بشر، دار الثقافة العربية، د.ط، سنة 1994م، ص: 87.
24- ينظر: علم الدلالة بالمر: إطار جديد، ترجمة: صبري السيّد، مرجع سابق، ص: 80.
25- بتصرف: مناهج البحث في اللغة، تمام حسان، مرجع سابق، ص: 251.
26- المرجع نفسه، ص: 233.
27- اللغة العربية، معناها ومبناها، تمام حسان، ـ النهضة الهيئة المصرية للكتاب، د.ط، سنة: 1973م، ص: 339.
28- المرجع نفسه، ص: 231-240.
29- المرجع نفسه، ص: 340.
30- المرجع نفسه، ص: 344-345.
31- المرجع نفسه، ص: 342.
32- المرجع نفسه، ص: 343.
33- المرجع نفسه، ص: 262-263.
34- المرجع نفسه، ص: 263.
35- المرجع نفسه، ص: 265.
36- ديوان امرئ القيس، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ط02، سنة: 1964م، ص: 17.
37- اللغة العربية، معناها ومبناها، تمام حسان، مرجع سابق، ص: 309-310.

38- المرجع نفسه، ص: 170.
39- ينظر: دراسات في علم اللغة، كمال بشر (القسم الثاني)، دار المعارف، مصر، سنة: 1969م، د.ط، ص: 64-66.
40- اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، مرجع سابق، ص: 188.
41- المرجع نفسه، ص: 189.
42- المرجع نفسه، ص: 189.
43- دلائل الإعجاز في علم المعاني، عبد القاهر الجرجاني، علّق عليه السيّد محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت، مج01، ص: 262.
44- المصدر نفسه، مج1، ص: 70.
45- المصدر نفسه، مج1، ص: 70.
46- مريم: 40.
47- دلائل الإعجاز في علم المعاني، عبد القاهر الجرجاني، مصدر سابق، ص: 364.
48- المصدر نفسه، ص: 92.
49- المصدر نفسه، ص: 137.
50- المصدر نفسه، ص: 169.
51- المصدر نفسه، ص: 169. يقصد عبد القاهر الجرجاني قوله تعالى: "واسأل القرية" يوسف: 82.
52- أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ودار المدني، بجدة، ط1، سنة: 1412هـ/ 1991م، ص: 421-422.
53- ينظر: دلائل الإعجاز، مصدر سابق، ص: 185.
54- ينظر: ينظر: المصدر نفسه، ص: 136-137.
55- الكتاب، لأبي بشر عمرو عثمان بن قنبر المعروف بسيبويه، تحقيق: الاستاذ عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، سنة: 1408هـ/1988م، مج1، ص: 120.
56- كشاف الاصطلاحات الفنون، التهانوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، مج02، سنة: 1977م، ص: 125.
57- ينظر: سياق الحال في الدرس الدلالي، الدكتور فريد عوض حيدر (تحليل وتطبيق)، مكتبة النهضة المصرية، د.ط، د.ت، ص: 9-10.
58- دراسات في علم اللغة، كمال بشر (القسم الثاني)، مرجع سابق، ص: 54.
59- ينظر: علم الدلالة، أحمد مختار عمر، مرجع سابق، ص: 68.

قائمة المصادر والمراجع:

1- الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة، يحي أحمد، مجلة عالم الفكر، بيروت، ط03، مج02، سنة: 1980.
2- أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلّق عليه محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ودار المدني، جدة، ط1، سنة: 1412هـ/1991م.
3- دراسات في علم اللغة، كمال بشر (القسم الثاني)، دار المعارف، مصر، سنة: 1969م.
4- دلائل الإعجاز في علم المعاني، عبد القاهر الجرجاني، علّق عليه السيّد محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت، مج01.
5- دور الكلمة في اللغة، تسيفن أولمان، ترجمة: د.كمال بشر، مكتبة الشاب، ط10، سنة: 1986.
6- ديوان امرئ القيس، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ط02، سنة: 1964م.
7- سياق الحال في الدرس الدلالي، الدكتور فريد عوض حيدر (تحليل وتطبيق)، مكتبة النهضة المصرية، د.ط، د.ت.
8- علم الدلالة، أحمد مختار عمر، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، ط1، سنة: 1982م.

9- علم الدلالة، الفصلان التاسع والعاشر من كتاب مقدمة في علم اللغة النظري، جون لانيز، ترجمة: مجيد عبد الحليم الماشطة، حليم حسن فالح، وكاظم حسن باقد، جامعة البصرة، كلية الآداب، د.ط، سنة: 1980م.
10- علم الدلالة بالمر: إطار جديد، ترجمة: صبري السيّد، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط1، سنة: 1999م.
11- علم الدلالة العربي، فايز الداية، دار الفكر، دمشق، ط1، سنة 1405هـ/1985م.
12- علم اللغة، مقدمة للقارئ العربي، محمود الشعران، تصوير جامعة حلب، د.ط، سنة: 1994م.
13- علم اللغة الاجتماعي، كمال بشر، دار الثقافة العربية، د.ط، سنة 1994م.
14- الكتاب، أبي بشر عمرو عثمان بن قنبر المعروف بسيبويه، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، مج1، سنة: 1408هـ/1988م.
15- كشاف الاصطلاحات الفنون، التهانوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، مج02، سنة: 1977م.
16- لسان العرب، أبي الفضل جمال الدين، محمد بن مكرم، ابن منظور الإفريقي المصري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط2، ج2، سنة: 1412هـ/1992م.
17- اللغة: فندريس، ترجمة: عبد الحميد الذواخلي ومحمد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د.ط، سنة: 1950م.
18- اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، دار النهضة العربية، الهيئة المصرية للكتاب، د.ط، سنة: 1973م.
19- معجم المصطلحات اللغوية والأدبية، محمد شكري عباد، الرياض، دار المريخ للنشر، د.ط، سنة: 1984م.
20- مناهج البحث في اللغة، تمام حسان، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط2، سنة: 1394هـ/1974م.
21- موجز تاريخ علم اللغة في الغرب، ه.روبتر، ترجمة: أحمد عوض، عالم المعرفة، الكويت، العدد 227، سنة: 1997م.
22- Combridge rolume 2 ، J.Lyons، london First Published Semonlies، p 609.